دراسات معاصرة
Contemporary Studies
مجلة علمية دولية محكمة نصف سنوية
تصدر عن مخبر الدراسات النقدية والأدبية المعاصرة جامعة تيسمسيلت/الجزائر
ISSN 2571-9882 EISSN 2600-6987
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/297
Contemporary Studies is a bi-annual open access International double-blind journal. It is published by the University of Tissemsilt, Algeria.
ASJP Algerian Scientific Journal Platform
المجلد :06/ العـدد:02 / ديسمبر (2022)، ص.558/547

مأساة التّعبير والبحث عن الهويّة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة
استكناه الوقع في نصّ: عام جديد بلون الكرز لمالك حدّاد

The tragedy of Expression and quest for Identity in the Algerian Literature expressed in French, a poof reading in its impactin the Text of: A Cherry-Colored New Year by Malek Haddad

د. زليخة ياحي
Zoulikha.yahi@univ-alger2.dz
جامعة الجزائر 02
(الجزائر)

تاريخ الاستلام: 2022/05/24 تاريخ القبول: 2022/11/09 تاريخ النشر: 2022/12/02

ملخص:

نشأ الأدب الجزائري في ظلّ ظروف وأوضاع متأزّمة جعلته يتعثّر في خطاه، منذ ميلاده، وحاول مع الزّمن أن يبلغ درجة النّضج والاستواء الّتي بلغها نظيره في العالم، ومعلوم أنّ الجزائر ودول المغرب عرفت ازدواجية في اللّغة الّتي يكتب بها المبدعون بين اللّغة العربية من ناحية، واللّغة الفرنسية من ناحية أخرى.

وهذا ما أفرز تداول تسمية الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسيّة؛ والّتي كان للاستعمار الفرنسي علاقة مباشرة بظهورها، ورقيّها، وعلى هذا الأساس طرحت إشكالية التّصنيف، كما برزت بالموازاة مع ذلك مأساة التّعبير الّتي عانى منها الأدباء الجزائريّون الّذين توسّلوا اللّسان الفرنسي أداة للتّعبير، وراحوا يبحثون عن هويّتهم ضمن كتاباتهم؛ حيث شعروا بالمنفى المتعدّد في اللّغة والكتابة معا على غرار مالك حدّاد؛ الّذي كان في لحظة مكاشفة وبوح تجلّت في كلّ نصوصه الرّوائيّة والشّعريّة، وهذا الّذي تروم الدّراسة استكناه وقعه من خلال نص: عام جديد بلون الكرز، باعتباره مؤلّفا يحوي مختارات من أشعاره ونصوصه الّتي عكست وجها من أوجه المأساة التّعبيريّة الّتي تردّدت في جلّ نتاجاته الأدبيّة.

كلمات مفتاحية: الأدب الجزائري، مأساة التّعبير، الهويّة، مالك حدّاد، عام جديد بلون الكرز.

Abstract:

Since its inception, Algerian literature has struggled to overcome obstacles that have caused it to stumble in its steps as it attempts to mature and level out to the same degree as its international counterpart. It is well known that Algeria and the countries of the Maghreb have experienced a dichotomy in the languages used by creative people to write, namely Arabic and French.

This led to the spread of the name of French-language literature from Algeria, the emergence and development of which were directly related to French colonialism. On this basis, the issue of classification as well as the tragedy of expression suffered by Algerian writers who used the French language as a means of expression and started looking for their identity within their writings-where they felt the simultaneous exile in language and writing-were brought up. Like Malik Haddad, he was experiencing a period of self-discovery, which was reflected in all of his literary and poetic works.The study's impact on the text is intended to be as follows: As an author, he wrote A New Year in the Color of Cherries, which includes excerpts from poems and other writings that reflect one of the recurring themes of expressive tragedy in most of his literary works.

Keywords: *Algerian literature; expression tragedy; identity; Malek Haddad;*Cherry-Colored New Year.

مقدمة

يعتبر الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسيّة وليد اتّصال وتلاقح بين ثقافتين جمعت بينهما ظروف سياسيّة جعلت العلاقات مشحونة في ظاهرها وباطنها، الجزائريّة من جهة والفرنسيّة من جهة أخرى، في عهد الاحتلال، وقد توسّلت فئة من الأدباء الجزائريّين اللّسان الفرنسي كأداة للتّعبير عمّا يختلج نفسها، وما يعانيه الشّعب من ويلات الاحتلال أثناء المقاومة، ورصد رحلة البناء والتّشييد بعد الانعتاق من نير الاستبداد.

وقد جال المبدعون في رحاب فنون أدبيّة كثيرة شعريّة ونثريّة، غير أنّ اللاّفت للانتباه أنّ الرّواية اعتبرت من أكثر الأنواع الأدبيّة إقبالا من طرف المبدعين والنّقاد على حدّ سواء، ولأنّها فرضت نفسها ووجودها بحكم أنّها تنهل من معين غني يتّخذ من واقع المجتمعات مادة يستلهم منها نتاجه، ويعبّر من خلالها عن آمالها وطموحاتها، كان هذا حال الأدب الجزائري عموما، والرّواية على وجه الخصوص؛ حيث انقسمت في الجزائر إلى رواية مكتوبة باللّغة العربيّة وأخرى مكتوبة باللّغة الفرنسية. غير أنّ الأمر لم يقتصر على الرّواية فحسب بل كان للشّعر حظوة هو الآخر مع ثلّة من الشّعراء الّذين أنتجوا نصوصا غزيرة غرفت من معين كلّ تيار.

وبهذا عرف الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية بروز أدباء ساهموا من خلال كتاباتهم في إثراء المكتبة الأدبية في الجزائر، سواء قبل الاحتلال أو بعده، واستطاع بذلك أن يصوّر الظّروف الّتي عاشها الجزائريّون آنذاك، لتطرح فيما بعد إشكالية التّعبير باللّغة الفرنسية في الأدب الجزائري، وهويّته وانتمائه.

ولنقف عند ما شاع لدى الكتّاب الّذين اتّخذوا اللّغة الفرنسية أداة للكتابة بما عرف بمأساة التّعبير لديهم؛ لعدم إتقانهم اللّغة العربيّة، وعلى رأس هؤلاء الكاتب الجزائري مالك حدّاد، وهذا ما ستحاول هذه الدّراسة تبيان تجلّياته من خلال طروحات في هذا السّياق أشار إليها الكتّاب والنّقاد على حدّ سواء، وسبيلنا في ذلك الوقوف على الإشكاليّة الرّئيسة المتمثّلة في: كيف تعامل الأدباء الجزائريّون مع مأساتهم المتولّدة من جهلهم باللّغة الأم؟ وكيف يمكن استكناه الوقع من خلال نصوصهم؟ وكيف تجسّدت إشكالية الانتماء في مؤلّف مالك حدّاد؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة اعتمدنا المنهج الوصفي التّحليلي في استقراء الأنموذج النّصي لمالك حدّاد الموسوم: عام جديد بلون الكرز، كما تمّت الاستعانة بالمنهج التّاريخي في الحديث عن واقع الحركة الأدبيّة الشّعريّة الجزائريّة.

1. واقع الحركة الأدبيّةالشّعريّة في الجزائر:

إنّ الحديث عن الحركة الأدبية الشّعريّة في الجزائر تأخّر ظهورها نسبيّا بالمقارنة مع نظيرتها في الوطن العربي، وسبب ذلك يرجع إلى العامل الكولونيالي، وفي هذا الصّدد يقول طه وادي: "إنّ الفترة الّتي تمتدّ من سنة 1954 إلى سنة 1962، ليست تحوّلا جذريّا في التّاريخ النّضالي الجزائري فحسب، ولكنّها - أيضا - أخصب فترة في المجال الأدبي على الإطلاق، فهي الّتي شهدت تطوّر فنّ القصّة، والرّواية"[1]، وهو حال الشّعر في الجزائر، فهو "مثل باقي الشّعر في أنحاء العالم عبر مراحله التّاريخيّة يخضع للتّطوّر ولا سيّما من جانبه الفنّي"[2]، فقد شهد كغيّة الألوان الأدبيّة إقبال المبدعين عليه، والباحث "في الشّعر الجزائري الحديث والمعاصر يحتاج إلى أن يعود إلى الماضي ليربط الحاضر به، وفي الوقت نفسه يدرك تأثّر الحاضر بالماضي، وأثر هذا في الحاضر، فقوّة الأدب أو ضعفه تتأثّر بالعوامل المختلفة من جهة وتتأثّر بالمراحل الّتي يمرّ بها الأدب شعرا ونثرا من جهة أخرى"[3].

والوقوف عند واقع الحركة الأدبيّة الجزائريّة يستدعي أن يشار إلى العوامل الّتي ساهمت في تطويرها؛ ذلك أنّ الأدب الجزائري عبّر عن روح الشّعب، وساير مختلف ظروفه؛ حيث "مرّت عليه عهود وفترات تأرجح فيها بين اليأس والأمل مرّة، وحاول أن يدفع بعجلة التّطوّر إلى الأمام مرّة أخرى"[4]، والحديث عن التّجربة الشّعريّة الجزائريّة يرى بأنّها كتبت باللّغتين العربية والفرنسيّة، هذه الازدواجيّة الّتي أنتجتها صيرورة تاريخيّة لا مناص منها، وكلّها تدخّلت في تشكيل الأدب الجزائري على مرّ العصور.

ويشير عبد العزيز شرف في حديثه عن الشّعر الجزائري المكتوب بالفرنسيّة قائلا: "بأنّه مثل القصّة وغيرها من الأجناس الأدبيّة قد انبعثت من صدور الشّعراء الجزائريّين ليشهد على مأساة تاريخيّة، أضف إلى ذلك أنّه شعر جزائري عربي يعبّر عن ذاته بالفرنسيّة وليس ذلك - على حدّ تعبير مالك حدّاد- إدانة للثّقافة الفرنسيّة، وإنّما إدانة للاستعمار ذاته، فجميعنا نعترف بما لهذه الثّقافة الفرنسيّة من فضل على الحضارة العربيّة المعاصرة"[5] وليس على الجزائر فحسب.

كما أنّ الشّعر المكتوب باللّغة الفرنسيّة تميّز "بشدّة ارتباطه بالأرض الجزائريّة الّتي يعيش عليها شعب يريد الاحتفاظ بمقوّماته النّفسيّة وذخيرته الرّوحيّة وطابعه الأصيل، فلم ينس شعراء الجزائر في عالمهم الثّقافي الرّفيع ولغتهم المستوردة الحقيقة المؤلمة الّتي يعيش فيها أبناء قومهم بل عملوا ببراعة من خلال شعر إنساني رائع اللّغة والموسيقى على تثبيت صورة الجزائر في أذهان الفرنسيّين، ومن يجيد الفرنسيّة من بني قومهم ففي هذا الشّعر يمكننا أن نستشفّ بحقّ عبير الأرض الجزائريّة، وأن نتلمّس برغم اللّغة الفرنسيّة كافّة مقوّمات الرّوح العربيّة الخالصة"[6]؛ لأنّ الشّعراء استلهموا تجاربهم من واقع الحياة الجزائريّة. وعلى الرّغم من استعمال اللّغة الفرنسيّة وتوسّلها أداة للتّعبير نلاحظ مواكبة الشّعراء لمختلف الأحداث الّتي عرفتها الجزائر، "فكانت تجربة كتابة الشّعر باللّغة الفرنسيّة بحثا عن شكل جديد للتّعبير؛ بحيث تمكّن الجزائر من الاتّصال بجمهور غير جمهورها القديم"[7]، ليخوض الشّعر الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسيّة في مواضيع شتّى لهلا علاقة بالحياة اليوميّة، والمناسبات الوطنيّة.

2. الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسية، ومأساة التّعبير عند الأدباء:

الحديث عن التّجربة الأدبيّة في الجزائر يأخذنا إلى الوقوف عند مسارين ما كتب منها باللّغة العربية، وما كتب منها باللّغة الفرنسية، هذا الأخير نتج عن الاتّصال بين الجزائريين والفرنسيّين في عهد الاحتلال، وقد اتّخذ الأدباء اللّغة الفرنسيّة سبيلا للتّعبير عن طموحات شعبهم ومعاناته في ظلّ الظّلمة الّتي عاشها الجزائريّون، وقد ولّد هذا ما يعرف بمأساة التّعبير لدى الكتّاب الجزائريّين، الّتي تعدّدت أسبابها كالتّعليم الفرنسي؛ الّذي لم "يكن مفتوحا إلاّ لفئة قليلة مميّزة من الأهالي، وهؤلاء الذين حالفهم الحظّ في متابعة دراستهم، تلقّوا تعليما مغايرا لطبيعة المجتمع المغاربي"[8].

ولعلّ التّوجّه إلى المدرسة الفرنسيّة سببه صعوبة الحياة، وقلّة فرص الحصول على العمل، ونذكر في هذا الصّدد إيقاف والد كاتب ياسين لابنه عن التّعليم الدّيني بالكتاتيب ليجنّبه شرور الحياة، "اترك العربيّة في الوقت الرّاهن، لا أريد ألاّ تجد مثلي مكانا بالمرّة، لا، لن تكون ضحيّة الكتّاب، ماذا يمكن أن تجنيه من هذه التّربيّة؟ تخلّى عن معارفك السّابقة؛ إنّ اللّغة الفرنسيّة هي السّائدة، وعليه يجب التّحكّم فيها، طبعا سوف تعود -بعد تخرّجك-بدون خطورة إلى وضعيّتك السّابقة"[9]، وهذا ما دفع بالجزائريّين إلى التّوجه إلى التّعلّم في المدارس الفرنسيّة.

إنّ هؤلاء الكتّاب الّذين استعانوا باللّغة الفرنسيّة ليفصحوا عن خلجات أنفسهم بل عن "خلجات القلب العربي، وأفكار الذّهن العربي، وصبوات الإرادة العربيّة، يشعر شعورا قويّا بأنّهم من ذلك في مأساة ذات وجوه عدّة ليس أخطرها شأنا أنّ أحدهم يتمنّى أن ينطق باللّغة الّتي تتفق وسمرته، وأن يكون عربي اللّسان، كما هو عربي الوجه واليد والقلب، ولا لأنّهم يخجلون من الكتابة بلغة هي لغة المستعمر العدوّ، بل أخطرها شأنا إحساسهم بأنّ هناك ارتباطا بين مشاعرهم وأفكارهم، وأحلامهم العربيّة، وبين اللّغة العربيّة الّتي كانت تستطيع وحدها أن تعكس هذه المشاعر، والأفكار والأحلام عكسا صادقا يتوافر فيه كلّ ما ينبغي توافره في التّعبير الأدبي من انسجام خفي بين المعنى واللّفظ، بين تموّجات العاطفة وموسيقى العبارة، بين لطائف الفكر وتثنيّات الأسلوب، بين إيقاع النّفس ونبرات اللّسان، وذلك ما عجزوا عنه أو عجزوا"[10]، ولهذا شعروا بعظم المأساة، والتّغييب عن مراتع اللّغة الأمّ.

فرغم تمكّنهم من ناصية اللّغة الفرنسيّة إلاّ أنّ ذلك كلّه "لا يغنيهم عن الأنفاس الّتي كانوا يتمنّون أن تخرج من صدورهم فتحرّك لهوات، إنّها خلقت لتتحرّك بها، لا ولا يغنيهم عن نفض مشاعرهم بلغة هي الّتي هدهدتهم بها أمّهاتهم في المهد فارتبطت بأعمق ما في نفوسهم"[11]، ولكن جور الاستعمار فعل فعله بهم، وجعلهم يعيشون المأساة مرّتين عند الكتابة، وعند نقل كتاباتهم إلى اللّغة الأمّ.

و"ليس هناك تعبير أشدّ وأبلغ عن مأساة التّعبير لدى الكتّاب الجزائريّين من تعبير مالك حدّاد، حيث قال له الكاتب جابرييل أوديزيو(Gabriel Audisio)، وهو يمثّل إلى جانب كامو(Albert camus) وروبلس(Roblès) طليعة الكتّاب الجزائريّين الّذين هم من أصل أوروبي: "إنّ وطني هو اللّغة الفرنسية فأجابه مالك حدّاد في مرارة حزينة

قائلا بالفرنسية: la langue française est mon exil، وتعني أنّ اللّغة الفرنسيّة هي المنفى الّذي أعيشه، ومفتاح المأساة لدى الكتّاب الجزائريّين في أنّ اللّغة الفرنسيّة تفصلهم عن الجزائر الّتي تنطق بكلّيتها اللّغة العربيّة، وهذا ما سمّاه مالك حدّاد أيضا باليأس الفنّي "désespoir technique"[12].

ويصرّح مالك حدّاد عندما يذكر مأساة جهله باللّغة العربيّة، ويئنّ في أسى ومرارة: "ستقول إنّ مالكا هذا يستخدم كلمات فرنسيّة، وما أهميّة ذلك؟ إنّ كلمة الجزائر يمكن أن تقال بالصينيّة، بلى يا أراجون ... تلك هي مأساة اللّغة، لو كنت أعرف الغناء لتكلّمت العربيّة"[13]، ويقول في إحدى قصائده: أنا أرطن ولا أتكلّم، إنّ في لغتي لكنة، أنّني معقود اللّسان. وقد كتب أراجون في هذا الصّدد: "إنّني أفهم مأساتهم، مأساة أن يروا أدبهم مترجما قد فقد أصداءه العميقة أو كاد، "[14].

ورغم تجرّع هذا الألم الّذي يسكن دواخل الكتّاب إلاّ أنّ اعتبار الأدب المكتوب بالفرنسيّة عربيّا يجعل طوفان هذا الإحساس يركن، وبركانه يخبو، وهذا الّذي قال به أحد النّقاد الفرنسيّين في مقدّمة لإحدى روايات كاتب ياسين: "يجب أن نعدّ هذا الكتاب رواية عربيّة مترجمة إلى اللّغة الفرنسيّة، لا لأنّ أبطالها عرب، ولا لأنّ أحداثها تجري في أرض عربيّة، ولا لأنّ مدارها على الآلام الّتي يتحمّلها العرب في الجزائر، وعلى الآمال الّتي تجيش في صدورهم، بل أوّلا وقبل كلّ شيء لأنّ العقل الّذي أنجبها عقل عربي، له أسلوبه الخاصّ في كلّ شيء، في النّظر إلى الأمور، في الإحساس بالمشكلات، في معاناة الحياة، بل حتّى في تصوّر الزّمان والمكان"[15]، فهي في روحها لا في اللّغة الّتي دوّنت بها.

ولم يكن مالك حدّاد وحده من عانى من إشكاليّة التّعبير، بل هذا مولود فرعون عبّر عن المأساة في رسالة إلى صديقه الكاتب ألبير كامو " أكّد فيها أنّ أزمته تكمن في تمكّنه من الكتابة باللّغة الفرنسية، وعدم قدرته على التّعبير بالعربيّة، وإنّ هذا الأمر يشكّل له في البداية ضيقا ما، ولكن عندما تبلورت شخصيّته، وأصبح إيمانه بالقوميّة الجزائريّة واضحا، واشترك في أعمال اجتماعيّة، وسياسيّة تخدم الثّورة الجزائريّة بدأ يحسّ بالمرارة، وبتمنّى أن يعبّر عن مشاكل بلاده بلغة بلاده"[16]، ولكن هذا لم يتأتّ له ولزملائه الّذين كتبوا باللّغة الفرنسيّة.

وهو حال مُحَمَّد ديب الّذي يقول: "كان لا بدّ للسّنين المائة والثّلاثين الّتي قضتها فرنسا في تمدين جزائرنا من أن تؤتي ثمارها، والحقّ أنّه قد آتت هذه الثّمرات، فيا لها من ثمرات! ستعرفون هذه الثّمرات: إنّ وصفها هو موضوع هذه الرّوايات الثّلاث، غير أنّني أحسّ -وأسفاه-أنّ اللّوحة الّتي رسمتها لا تبلغ من السّعة كلّ ما كان ينبغي أن تبلغه. كان هناك أشياء كثيرة مفرطة في الكثرة يجب تصويرها، وكان تصويرها يحتاج إلى موهبة"[17]، بالإضافة إلى اللّغة الّتي تترجم كلّ تفاصيل هذه اللّوحة، الّتي سعى ديب إلى استجلاء تفاصيلها للقارئ.

وكذلك الحال مع كاتب ياسين الّذي عبّر عن ذلك بانقطاع الحديث بينه وبين أمّه، أو كاد على تعبير أحمد منور؛ حيث "لم يعد له متّسع من الوقت لسماع حكاياتها وأشعارها الشّعبيّة الممتعة، وكانت هي نفسها شاعرة بالعربية العاميّة، فكانت تجلس إلى جانبه، وهو منهك في مراجعة دروسه، وإنجاز واجباته وتروح تنقل نظرها في صمت بينه وبين كتبه، وأوراقه حتّى أنّها اقترحت عليه ذات مرّة -من أجل إعادة التّواصل بينهما- أن يعلّمها اللّغة الفرنسيّة، ولم يكن ذلك ممكنا، فكان هذا بالنّسبة إليه بمثابة قطع السّرة مرّة أخرى، بينه وبينها وقد اختار أن ينهي روايته المضلّع النّجمي بهذه العبارة: وهكذا فقدت أمّي، وفقدت كلاهما في آن واحد، وهما الكنزان اللّذان لا يقبلان الاستيلاب، ومع ذلك فقد استلبا منّي "[18].

ويضيف عبد العزيز شرف بأنّ هؤلاء الكتّاب اعتبروا التّعبير والكتابة باللّغة الفرنسية نوعا ما من الغربة أو النّفي، وسبب ذلك أنّ جمهور الكاتب عربي، وهو يكتب بالفرنسيّة بالإضافة إلى أنّ الكاتب الّذي يعبّر باللّغة الفرنسيّة من الصّعب عليه أن يعبّر عن الحقيقة الجزائريّة، ورغم ذلك يصرّ مع مالك حدّاد على أنّ الأدب الجزائري؛ "الّذي يشهد على هذه المأساة التّاريخيّة؛ لأنّه أدب جزائري عربي يعبّر عن ذاته باللّغة الفرنسيّة ليس إدانة للثّقافة الفرنسيّة، أو اللّغة الفرنسيّة فجميعنا نعترف بما لهذه الثّقافة الفرنسيّة من فضل على الحضارة العالميّة، ولكنّه إدانة للاستعمار الّذي تسبّب في خلق هذه المأساة"[19] الّتي عاشها أغلب الأدباء الجزائريّين.

ورغم ذلك كان على "أدباء الجزائر أن يوجدوا انسجاما وتنسيقا بين عبقريّتهم القوميّة، وبين أداة لغويّة أجنبيّة كان لا بدّ لهم من استخدامها، ومن ثمّ لا نعجب حين نجد أنّ المؤلّفات الّتي كتبت بالفرنسيّة من قبل أدباء الجزائر،

والّتي استوحوها من الواقع الاستعماري، ومن حربهم التّحريريّة، إنّ هذه المؤلّفات رغم كونها مكتوبة بالفرنسيّة تحمل في مضمونها، وهيكلها طابع الصّدق والحقيقة الجزائريّة، ولكن ذلك لم يحل دون الإحساس بالمرارة لدى الكتّاب الجزائريّين لعدم قدرتهم على التّعبير بالعربيّة"[20]. إلى الحدّ الّذي فضّل معه مالك حدّاد الصّمت، فهو لم يكتب أيّ نصّ روائي بعد الاستقلال، في حين اتّجه مُحَمَّد ديب إلى الكتابة الرّمزيّة، وتخلّى كاتب ياسين عن الكتابة بالفرنسيّة، وتوجّه إلى المسرح الشّعبي بالعربيّة الدّارجة، وامتدّ الأمر إلى مولود معمري الّذي قلّت أعماله الإبداعيّة، وهذا حال آسيا جبّار كذلك[21].

ومع الوقت انطرحت إشكاليّة مأساة التّعبير باللّغة الفرنسيّة على جنب، لتتوسّع ضمن دائرة المنفى، والمنفى ليس بالمسافات والجغرافيّة، بل بالشّعور الّذي يطغى على الجانب الرّوحي، والّذي يصاحبه شعور يغمر الكاتب بالأسى، وهو يعيش المنفى داخل حدوده هكذا تجرّع الأدباء غصص المرارة والألم، فما أفظع الإحساس الّذي يرافقك وأنت تدافع عن هويّتك ووطنك، وأهلك بل عنك بلغة غير لغتك.

3. إشكاليّةالانتماء والبحث عن الهويّة:

إنّ أبرز قضيّة واجهت الأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسيّة هي إشكاليّة الانتماء والهويّة، الّتي أصبح الحديث عنها من المسائل الأساسيّة في الفكر المعاصر، ولعلّ طرح هذه المسألة يكون في بيئة تعاني بشدّة، والأكيد أنّه لن يكون الغرب، وقد أصبحت حضارته مهيمنة، وإنّما تطرحها الأمم المغلوبة، ونخبها بالذّات، والّتي وسمها إدريس هانيبقوله أنّها أنا مهمّش في مقابل هذا الآخر الحضاري[22]، فالأقليّات الاجتماعيّة هي الّتي تهتمّ بهذه القضيّة؛ حيث يشعر أفرادها بأنّ هويّتهم مهدّدة على نحو ما على غرار شعوب العالم الثّالث الّتي تعرّضت للاستعمار.

وقد تضاربت الآراء حول انتماء الأدب الجزائري، وفي هذا الصّدد يقول مُحَمَّد ديب: "بل قولوا أنّ أدبا قوميّا يظهر الآن في المغرب عامّة وفي الجزائر خاصّة، غير أنّ الأمر الّذي له دلاله بليغة هو أنّ هذا الأدب يكتب باللّغة الفرنسيّة في بلاد ذات تراث ثقافي إسلامي لا تزال تحاول، ولو في كثير من العناء أن تقدّم إنتاجا أدبيّا باللّغة العربيّة"[23]، وفي هذا ردّة فعل تظهر دفاع مُحَمَّد ديب عن جزائريّة الأدب المكتوب باللّغة الفرنسية؛ لأنّه لا حيلة لهم وهم يرون فرنسا تنتزع منهم أداء التّعبير باللّغة الأمّ، فلا مناصّ لهم من اتّخاذ لغة العدو سبيلا للتّعبير والكتابة.

وقد طرحت مسألة الهويّةتأسيسا على طروحات المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن الّتي يعتقد منظّروها "أنّ العامل اللّغوي حاسم في تحديد هويّة النّصوص، ونرى أنّ ذلك غير كاف بالنّظر إلى الأمم الّتي تكتب أدبها بلغات مستعارة، وتلك الّتي تقرّ التّعدّد اللّغوي في سياستها الثّقافية الرّسميّة، لا بدّ من النّظر إلى المرجعيّة الحضاريّة والفكريّة لتعضيد أحكامنا بشأن هويّة الأدب في زمن الهويّات المتقاتلة، وفي زمن الكلّ يحارب الكلّ"[24]. وعلى الرّغم من ذلك لا تزال الإشكالية قائمة أيعتبر هذا الأدب فرنسيّا بالنّظر إلى اللغة الّتي كتب بها، والجمهور الموجة له، أم تعتبر أدبا جزائريّا باعتبار الرّوح الّتي كتبت بها[25]، فبين اللّغة والمضمون يبقى الإشكال في هويّة هذا الأدب قائما.

واللاّفت للنّظر أنّ الكتابة بلغة المستعمر لم تقتصر على الجزائر لوحدها، بل عرفتها "بنسب متفاوتة معظم بلدان إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاّتينيّة الّتي كانت خاضعة في يوم من الأيّام للاستعمار الفرنسي -وما زال بعضها خاضعا لهذا الاستعمار حتّى اليوم-كما أنّها ليست خاصّة بالاستعمار الفرنسي وحده، فقد وجدت في أغلب البلدان الّتي احتلّتها الدّول الأوروبيّة في القارات الثّلاث"[26]، ففي تلك البلدان يكتب الأدباء بلغة الاستعمار أيضا.

وللوقوف عند تفصيل دقيق لهذا الإشكال يرى أحمد منور أنّ الأسئلة الّتي طرحت، "وتطرح فيما يتعلّق بالأدب الجزائري المكتوب باللّغة الفرنسيّة هي أسئلة مطروحة أيضا بالنّسبة للأدب الآسيوي، والإفريقي، والأمريكي اللاّتيني المكتوب باللّغات الأوروبيّة المشار إليها أعلاه، ولكي تجد لك جوابا موضوعيّا، ينبغي أن تعالج حسب رأينا في هذا الإطار التّاريخي الجغرافي، السّياسي، مع الأخذ بعين الاعتبار في الوقت نفسه بظروف كلّ بلد، وبخصوصيّاته اللّغويّة والثّقافية وبطبيعة الاستعمار الّذي خضع له"[27]، والّذي ترك آثاره وجراحه في كلّ مناحي الحياة.

ورغم وجهة النّظر هذه تبقى أزمة هويّة هذا الأدب قائمة؛ حيث ألّف بأقلام جزائريّة، ولكن بلغة فرنسيّة، فبعد أن بزغت شمس الحرّية، واستنشق الجزائريّون عبقها ظلّ يتردّد هذا الموضوع، ويرى عبد المالك مرتاض بأنّه لم يعد لزاما طرحه: "قد يطفر الآن سؤال أصبح شبه تقليدي يعترض أيّ باحث في الأدب الجزائري المعاصر وهو: هل المقصود هنا القصّة الجزائريّة المكتوبة باللّغة الوطنيّة، أو المكتوبة باللّغات الأجنبيّة ومنها الفرنسية؟ وإخال أنّ مثل هذا

السّؤال لم يعد طرحه ذا شأن إذا علمنا بأنّ الكتاب الجزائريّين باللّغة الوطنيّة هم الأغلبيّة المطلقة"[28]، وهنا نفهم بأنّ إشكالية هويّة هذا الأدب لم يعد لزاما طرحها.

وعلى الرّغم من موقفه هناك فئة مثّلت الرّعيل الأوّل اعتبرت أنّ الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة لا يعبّر عن هويّة الجزائريّين، فمن منظور عبد الله الركيبي: "أنّ اللّغة ليس أداة تعبير وحسب، بل هي إلى جانب هذه الوظيفة الأساس حمّالة أفكار وقيم وناقلة إيديولوجيا"[29]، وعليه يبقى طرح المسألة اللّغويّة قائما فيما يتعلّق بهذه الكتابات الأدبيّة، والّتي شعر بوقعها مالك حدّاد من خلال أعماله الأدبيّة، الّتي حكت هذا الوجع؛ فالاستعمار من جهة، واللّغة الّتي ينتج بها كتاباته من جهة أخرى ساهمت في تعميق هذا الإحساس، فقد ظلّ يردّد بأنّ الاستعمار هو من أراد ذلك، ويتجلّى ذلك في جلّ أعماله النّثريّة والشّعريّة.

4. وقع المأساة في مؤلّف "عام جديد بلون الكرز":

يعدّمالك حدّاد أبرز الأدباء الجزائريّين الّذين خاضوا غمار الحديث في هويّة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة، وشعر بحجم المأساة، وردّد ذلك في أكثر من مناسبة قائلا: "إنّ لنا أساليب في التّفكير والإحساس وما إلى ذلك من تصرّفات، هي أشياء خاصّة بنا، فحتّى لو عبّرنا بالفرنسيّة فإنّنا ننقل حلمنا وغضبنا، وشكوانا الصّادرة من أعماق قرون وقرون من تاريخنا"[30]، فعلى الرّغم من التّعبير باللّغة الفرنسيّة إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من نقل وقائع الحياة الجزائريّة بكلّ تفاصيلها، وأصرّ على أنّه أدب جزائري أنتجته مرحلة ظرفيّة انتقاليّة عابرة في تاريخ الجزائر.

وقد حوى مؤلّف**عام جديد بلون الكرز** مختارات من أشعار ونصوص مالك حدّاد، ويشير سليم بوفنداسة متحدّثا عنه في عنوان مثير: الأمير البربري الّذي عاش في غير موضعه، قائلا: "لازال مالك حدّاد يمارس سحره على الأجيال الجديدة من كتّاب وقرّاء المغرب العربي الكبير، كأنّ الموت والصّمت لم ينالا من حضوره، كأنّ تأثيره يزداد كلّما رسخ في الغياب، والمدهش في حالة مالك حدّاد الّذي كتب بالفرنسيّة أنّ تأثيره امتدّ إلى كتّاب العربيّة، كشأن أحلام مستغانمي الّتي وقعت تحت سطوة لغته في ذاكرة الجسد، هي الّتي لم تخف ولعها بحدّاد شخصا ونصّا"[31]، ويعود ذلك إلى الشّعريّة الطّاغية الّتي ميّزت كتاباته.

لقد خلّف مالك حدّاد أربع روايات كتبها في السّنوات الأربع الّتي سبقت استقلال الجزائر، ومجموعتين شعريتين، إلى جانب أشعار ومقالات متفرّقة، هذا الأديب الّذي أعلن غربته في لغة الآخر، رغم إجادته لها، "ورغم أنّ أغلب نصوص مالك حدّاد كتبت في المرحلة الأخيرة من حرب التّحرير الجزائريّة إلاّ أنّها لا زالت تحافظ على راهنيّتها؛ لأنّ الحياة كانت موضوعتها الرّئيسيّة، بداية من حياة الكاتب الّتي يمكن أن نكتشفها في نصوصه الرّوائيّة والشّعريّة"[32]، وعلى الرّغم من أنّه لم يصدر سوى ديوانين شعريّين هما: الشّقاء في خطر، وأنصت ... وسأناديك، إلاّ أنّه برع في كتابته الشّعريّة، والنّثرية الّتي نذكر منها: رواية الانطباع الأخير، سأهبك غزالة، رصيف الأزهار لم يعد يجيب، التّلميذ والدّرس، كما نشر كتابا حمل عنوان مقاله: الأصفار تدور حول نفسها. ليتوقّف بعدها عن الكتابة الأدبيّة بعد الاستقلال.

فحين نتعمّق في أشعاره ندرك شاعريّة أسلوبه، وانتقاءه للألفاظ والمواضيع المناسبة، وتبرز مأساته التّعبيريّة، والبحث عن الهويّة في العديد من القصائد على غرار نصّ: أنصت ... وسأناديك يقول فيه:

رغم أغاني الأدغال المحروقة
أنصتوا إليّ
إنّني أتحدّث بلسان الأموات[33]

فهنا نستشفّ حجم الألم، الّذي يصوّره الشّاعر، وهو يكرّر عبارة: أنصتوا إليّ، كأنّه يخاطب القارئ مباشرة بأن ينتبه لما سيقوله، فرغم أغاني الأدغال المحروقة، ورغم تحدّثه بلسان الأموات، وخطّه بيد مكسورة يصرّ على تبليغ الرّسالة وشدّ انتباه المتلقّي:

حين كنت أجرّ منفاي، أو أجرّ جثّتي
حين كانت عيناي ترياناك دون أن أقابل عينيك[34].

تظهر جليّا عبارة المنفى الّذي عاشه مالك حدّاد، والّذي استشعر مرارته من خلال لغة المستعمر الّتي استعان بها، وتوسّلها أداة للكتابة الرّوائيّة والشّعرية، وهذا الّذي يظهر في قصيدة منفى، وقصيدة بلا عنوان، لتليها قصيدة بداية منفى؛ هذا المنفى الّذي يتكرّر حضوره في أشعار مالك حدّاد الّتي تروي تفاصيل ما عاشه:

جاءوا إلى بيتي بقسنطينة جاءوا مساء
فهم يزعجون الأحلام دوما في المساء[35]

فهنا يلتقط لحظة وقعود الحدث عندما هاجم المستعمر بيته، وأزعجوه، بل نغّصوا عليه حياته، ليصل الأمر إلى الحديث عن أكثر في حديثه عن أطفاله ووالدته، فالشّاعر يتوجّس خيفة، ويخشى على ابنته، ومنبع ذلك ممّا عاشه، فهو يرتجي أن تسير في درب لا أشواك فيه، ولا زجاج يثبّط الهمّة، ويذهب العزيمة، وفي هذا السّياق يقول:

بيد أنّني كنت أودّ بشدّة لو أنّ الشّيخ ابن باديس
يقصص عليها بالعربيّة
ما أنشده أنا بالفرنسيّة[36]

ففي هذا الرّجاء والتّمني تعبير مباشر برغبة مالك حدّاد في ألا تسلك ابنته نفس الطّريق الّذي سلكه هو مع اللّغة الفرنسيّة، وأمل لو أنّ الشّيخ ابن باديس يروي لها الحكايات بالعربية الّتي يردّدها هو بلسان المستعمر، وهذا ما جعله يحترق داخليّا:

أصدقائي!
انظروا إلى الجبل ولتسمحوا لحلمي
سوف أمضي لكي أموت في الجزائر[37]

وعند تأمّل بقيّة القصائد تستوقفنا قصيدة: واحسرتاه على رؤيتك، والّتي تبرز حضور المأساة المتكرّر بلحنه الحزين، والّذي استشرى في نصوص الشّاعر برمّتها حتّى لكأنّها غيمة أبت إلاّ أن تمطر في كلّ مكان لتسقي أراض، ومساحات شاسعة تنبت أزهارا ارتوت جذورها من نبع الحنين إلى اللّغة الأمّ العربيّة:

هل ولدت في المنفى وفي طباعي
البحث داخل الميترو عن رواق غريب
هل أنا سجين هذا القيد؟[38]

كأنّ هذا القيد التفّ حول الشّاعر، ولم يترك له فرصة للتّنفّس، بل والتّملّص لاعتناق عبق الحرّية، واستنشاق نسائم عليلة تكسبه نفحات الاطمئنان في ظلّ هيمنة الكابوس الجاثم على صدره، والّذي يأبى الرّحيل إلى بقاع بعيدة تجعله يسير بتؤدة، وهو لا يتجرّع غصص هذه المأساة المرّة كالعلقم، ولا يبقى حبيسا في محطّة السأم، ولا يزور الذّكريات التّائحة، وينتشي بإشعاعات النّور، بدل اللّيل الحالك: هل سأتمكّن من رؤية عام جديد بألوان الكرز[39].

بل يبلغ الأمر منتهاه في هذه القصائد حين ينفذ صبر الشّاعر، ويصرّ على إعادة ترتيل نفس العبارة، والكلمات المدوّية كقذيفة خرجت من فوهة مدفعيّة، وصوّبت باتّجاه دقيق لا مجال لتحيد عنه:

حتّام ستظلّ تلك اللّحظات المسلوبة من ذاكرتي
الرّؤى المبتورة من العوالم الّتي نعلمها؟
وحتّى متى ستنتظر عيوني المنسوجة في اللّيل الأكحل
مرور الشّتاء؟[40]

إنّ تمعّن هذه الأبيات يجعلنا نسبر غور دلالتها، ونستكنه مرّ وقعها، فختّام برنس مالك شبحا غريبا، ومتى ستنقشع سحب الشّحوب الّتي جعلت قلبه متعلّقا بقسنطينة، فختّام هذه الكلمة الّتي تتكرّر في متن القصيدة توحي بانتفاضة بقيّة الكلمات الّتي اغتالتها فرنسا، كما اغتالت أخاه، وزجّت بوالده في السّجن، فماذا سيخبر الشّاعر غيره كي يتوحّد معهم بالشّعور، وحتّى متى هذا الملجأ الّذي يكون ضيفه فيه هو نفسه السّجان، ورغم هذه المفردات المتواشجة، والمشحونة بالألم يظلّ مجراها يسير إلى أن يبلغ مصب الأمل المحفوف بأكاليل الورود، وفي حديقة محرّرة لتقف وقفة جندي مستريح، يتأمّل ذاته المنهارة.

ليتغنّى في هذه الأبيات بنضال الشّعب الجزائري، وتعزف مسحة الحزن من جديد:

تلك الأغنيّة الواهنة الّتي سرقوا منها قوافيها
لم يتبق هذا المساء إلاّ مقطع من لازمة[41].

لازمة تفرض حضورها لتنعت دموع المأساة، والبكاء على أكتاف الهويّة، ليحبك قافية كلّما تغنّت عن الحاضر عاد رجع صدى الماضي يبكيها:

منحتني – خاصّة – الطّريقة المثلى لكي أومن بنفسي
لكي أنصت هذا المساء إلى نزيف الإنسان ببيتي[42]

هذا النّزيف الّذي امتدّ إلى الصّميم ليزيد من حدّة الألم، وتظهر تبعاته على المحيا، وتترجم بلسان لا يزال يتألم فتتدفّق عبر كلمات تحكي المأساة:

قدمت لأجل أن أراك يا إلهي
أنا التّبتة البائسة
فلتبق على اعتقادي في فضيلة الكلمات
إذ ليس لي إلاّ كلمات أحفر بها النّور[43].

ويبقى الشّاعر باحثا عن دقائق الكلمات الّتي تربت على وجعه فتنسيه ما يطرق بابه من ظلّ هذه المأساة، وما قصيدة باريس59 إلاّ مثال على ذلك؛ حيث ألقت بضلالها وهالاتها على المتن، بل وفي نفس القارئ؛ الّذي يتخيّل حجم الاضطهاد الّذي انتهجته فرنسا ضدّ المهاجرين الجزائريّين والأفارقة على أراضيها:

سوف أتكلّم شامخا، وقد فضّلت أن يكون قوامي
عصا يرفرف عليها العلم[44]

لينعت بعدها كلماته الّتي بعضها قالت الكثير، والأخرى كما وصفها حكيمة أغلقت على نفسها في كتبه، لتبلغ مرحلة الصّمت بعد الاستقلال، وهذا الّذي نستجليه في قوله:

انتفى الزّمن، أعتقد بأنّه آن ميقات التّوم
وقافيتي تمدّ بيديها لآخر فرصة[45]

تلك الفرصة الّتي قبضت عليها شاعريّة مالك حدّاد لتعبّر، وتصوّر وتنقل، وتحرّك ما يختلج صدره، وما يجول في خاطره من مواضيع أغلبها يدور حول الجزائر، فكانت هذه الكلمات الّتي أنقذت نفسها من الحروب هي نفسها فيلق الشّرق وبسالته.

لنلتقي في ثنايا الكتاب بمقاله: الأصفار تدور حول نفسها؛ والّذي أبان فيه عن رأيه الصّريح والمباشر في اللّغة الفرنسيّة، "تفصلني اللّغة الفرنسيّة عن موطني أكثر ممّا يفعله بي البحر الأبيض المتوسّط، وبمجرّد أن أهمّ بالكتابة بالعربيّة، يبزغ حاجز رغما عنّي بيني وبين قرّائي: الأمّية"[46]، فمأساة مالك حدّاد تتمثّل في عدم إتقانه للّغة العربيّة، حيث فصلته الفرنسية عن مهجة نبضه؛ الوطن، وعن القارئ أيضا. ويخاطب في نفس المقال أقرانه بسؤال: لمن تكتبون؟ ومن يقرؤكم؟ وهذا في قوله: "قذف بنا عشق الجزائر في زوغان التّشتّت، لم نهرب من المأساة؛ لأنّا نحملها فينا؛ لأنّا سوف نأخذها معنا أينما ولّينا وجوهنا؛ لأنّا أشعارنا وروايتنا سوف تسهم في التّعريف بها، فقد أكّدت لي شهادات حاميّة، بأنّ تلك الرّوايات وتلك الأشعار لطالما حافظت على الأمل لدى أولئك الّذين لم ينقصهم الأمل طبعا، إلاّ أنّهم ازدادوا إيمانا به حالما عثروا في سنونواتهم على سبب كاف للاعتقاد بالرّبيع"[47].

وهنا يشرح سرّ المأساة المفضوحة في أشعاره ورواياته، الّتي تسرد هذه الحقيقة المرّة الّتي تنزف عميقا، ويردّد بأنّنا أيتام لقرّاء حقيقيّين، ومع ذلك قرّاء مالك حدّاد قرأوا ما كتب، ولا يزالون، وينبّه إلى أنّ اللّغة الأمّ كانت منفيّة في وطنها فتماهى معها، وعاش منفاه مرّتين، بل مرّات مع اللّغة، وفي الوطن، والكتابة، ومع القارئ كذلك، فما أشدّ وقع الألم!! "عاجز أنا عن أن أعبّر بالعربيّة، عمّا أشعر به بالعربيّة"[48]، بل أعمق من ذلك "تمكّنا من مقاومة بيجو ولم نستطع أن نفعل ذلك مع موليير"[49]، وهذا الّذي يترجمه عنوان المقال: الأصفار تدور حول نفسها.

وفي المقال الثّاني من هذا المؤلّف: الشّقاء في خطر، وهو عنوان لديوان شعري له، تتّضح بكلّ صفاء ونقاء الشّاعريّة الّتي تطبع لغة مالك حدّاد حتّى أنّه قال: "أنت تكتب لأنّك تحبّ، إذا لم تكن كذلك فضع القلم"[50]، لكن الشّاعر أبى إلاّ أن يمسك بهذا القلم، ويترك له العنان كي يعبّر، ويحلّق عاليا:

أتذمّر كلّ مرّة أكون فيها بعيدا عن الجزائر
عن قريب سوف نقيم أنغاما تنشد[51]

ويمتدح في بقيّة الأبيات الوطن، ويصوّر الوقائع الحاصلة إبّان الاحتلال ويتراءى أمله بين السّطور في الحرّية ونيل الاستقلال، ورغم ذلك تصرّ المأساة على الحضور لا التّخفّي:

أبي!
لماذا منعتني
من موسيقى الجسد
انظر ولدك يتعلّم كيف ينطق بلغة أخرى
إلى قوله: أمّي تدعى يما وأنا أسمّيها والدتي
أضعت برنسي، بندقيتي، قلمي
وأحمل اسما أشدّ اعوجاجا من طباعي[52]

فهنا صرخة تملأ الفضاء، ويجزع لها كلّ ذي إحساس مرهف، لقد فعلت اللّغة الفرنسيّة به فعلها وجعلته يغرق في منفاه وهو في وطنه: وفي الليسيه آلم أحصد كلّ جوائز اللّغة الفرنسيّة[53].

ورغم تجلّيات الوقع الظّاهر لمأساة التّعبير باللّسان الفرنسي في كتابات مالك حدّاد إلاّ أنّه خاض غمار الحديث في مواضيع شتّى تمتّ بصلة إلى واقعه، ووطنه وشعبه وحياته، ودواخله كذلك الّتي ذاقت صنوف الألم التّابع من المأساة في نفوس الأدباء الجزائريّين الّذين كتبوا باللّغة الفرنسيّة:

أخبروني عن فزع الأسود في المنفى
وأخبروني خاصّة
كيف هي الجزائر![54]

لتختم هذه المختارات بقول الشّاعر:

قالت الحمامة:
فلتغربوا عن وجهي
سأعود طيرا...[55]

لنقول بأنّ هذه المختارات من أشعار ونصوص مالك حدّاد الموسومة: عام جديد بلون الكرز عكست تجدّد الحديث عن مأساة التّعبير بلغة فرنسيّة، طرحت إشكاليّة الانتماء المتعلّقة بالأدب الجزائري الّذي دوّن بها، فتلوّنت بلون الكرز الّذي يوحي بوقع الصّدى في نفسه فعنده "تكفّ الحياة عن نفسها، وتتحوّل إلى أدب، فلا يدرك قارئه مسلوب الأنفاس أين يبدأ الأدب، وأين تتوقّف الحياة، حياته هو الّتي انتهكها أدبيّا، فاختلطت الحياة بالأدب، وتحوّلا إلى شيء"[56]، ترجما إبداعا لا نظير له، نبع فأشرق، وأثّر ولا يزال بريقه يلفت الانتباه، ويسيل مداد أقلام الباحثين لسبر غوره رغم وقع المأساة.

خاتمة:

بعد الخوض في غمار الحديث عن مأساة التّعبير والبحث عن الهويّة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة من خلال استكناه الوقع في مؤلّف: عام جديد بلون الكرز لمالك حدّاد، تمّ رصد النّتائج الآتية:

عانت الجزائر كغيرها من الأقطار العربيّة من ويلات الاستعمار، فكان طبيعيّا أن تظهر إشكاليّة الازدواج اللّغوي بين أدب مكتوب باللّغة الفرنسيّة، والعربيّة والّذي نشأ في ظلّ ظروف وأوضاع متأزّمة جعلته يتعثّر في خطاه، منذ ميلاده، ورغم ذلك جاءت كتابات المبدعين الجزائريّين متنوّعة، وزاخرة بفيض من الثّراء المعرفي الّذي وسمهم عن غيرهم من الأدباء.

وقد أفرزت هذه الازدواجية تداول أدب جزائري مكتوب بالفرنسية؛ والّذي كان للاستعمار الفرنسي علاقة مباشرة بظهوره، ورقيّه، ويحكي لنا التّاريخ أنّ الفترة الاستعمارية للجزائر شهدت حركة أدبية قوية قادها ثلّة من الكتّاب الغربيين الّذين ولدوا في الجزائر، ممّا أدّى بالكتّاب الجزائريّين إلى التّأثر بهم.

ولهذا شعر الأديب الجزائري بمأساة التّعبير بلغة غير اللّغة الأمّ، حيث ظهرت ردود أفعال في هذا الصّدد أعلنت غربتها، وهي تكتب باللّسان الفرنسي، فكان منفاها الأوّل لغويّا على غرار مُحَمَّد ديب، مولود معمري، وآسيا جبّار وكاتب ياسين، غير أنّ مالك حدّاد كان أكثر من شعر بحجم هذه المأساة. وبوحشة انعكست على كتاباته الروائيّة والشّعرية.

ولئن رأينا تجلّيات هذه الصّورة، ووقع المأساة في كلام المبدعين إلاّ أنّ نتاجاتهم الأدبيّة هي من سردت تفاصيل ذلك، وهذا الّذي عملنا على استنطاقه من خلال مؤلّف: عام جديد بلون الكرز، والّذي ترجم من خلال المختارات الشّعريّة والنّصوص الّتي كتبها مالك حدّاد عمق الحزن الّذي اكتنف دواخله، حيث كان يردّد: اللّغة الفرنسيّة منفاي، رغم اعتباره بأنّ المنافي لا تعني بأنّها بلا شأن بل أصرّ على أنّ اللّغة الفرنسيّة سنحت له بأن يخدم، أو يحاول خدمة وطنه الجزائر، فهو يقرّ بفضل اللّغة الفرنسيّة رغم شعوره الّذي رافقه طويلا عبر مسيرته الأدبيّة.

وعلى الرّغم من الجدل الحاصل في مسألة التّعبير باللّغة الفرنسيّة الّتي اعتبرت مأساة بالنّسبة لكتّاب الّذين اتّخذوها وسيلة لا أكثر، وبالموازاة معه هويّة هذا الأدب نتّفق على أنّ روحه جزائريّة على مستوى الإحساس، والموضوع والمعالجة، وما خرجنا به من خلال هذه الدّراسة ما هو إلاّ غيض من فيض يحتاج إلى دراسات وبحوث موسّعة في إطاره ومضماره.

الهوامش:

1طه وادي، الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 2003، ص:213،212.

2مُحَمَّد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث، اتّجاهاته وخصائصه الفنّية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2006، ص:15.

3المرجع نفسه، ص:16.

4 عبد الله الركيبي، دراسات في الشّعر العربي الجزائري الحديث، الدار القوميّة للطّباعة والنّشر، (دط)، (دت)، ص:11.

5عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص: 108.

6المرجع نفسه، ص: 108.

7المرجع نفسه، ص: 109.

8 إسماعيل حاجم، الصّراع الحضاري في الرّواية الفرانكفونية المغاربيّة، دار الأمل، الجزائر، ط2، 2020، ص:23.

9المرجع نفسه، ص:27.

10 ثلاثيّة مُحَمَّد ديب، التّول، الحريق، الدار الكبيرة، تر: سامي الدّروبي، دار الوحدة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، (دط)، 1985، ص:06.

11المرجع نفسه، ص:06.

12 عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص: 47.

13المرجع نفسه، ص: 48.

14 ثلاثيّة مُحَمَّد ديب، التّول، الحريق، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص:07.

15المرجع نفسه، ص:07.

16 عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص: 48.

17 ثلاثيّة مُحَمَّد ديب، التّول، الحريق، الدار الكبيرة، المرجع السابق، ص:07.

18 أحمد منور، أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة باللّغة الفرنسيّة،دراسة أدبيّة، دار السّاحل للكتاب، الجزائر، (دط)، 2013،ص:170.

19 عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، مرجع سابق، ص: 48.

20المرجع نفسه، ص: 54.
21 ينظر لخضر بلقاق، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة، وسؤال الهويّة، مجلة قضايا معرفيّة، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، ع 03، جانفي 2019، ص: 05.
22إدريس هاني، حوار حضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، بيروت/ لبنان، ط1، 2002، ص:105.
23 ثلاثيّة محمّد ديب، التّول، الحريق، الدار الكبيرة، مرجع سابق، ص:05.
24المرجع نفسه، ص:08
25 أحمد منور، أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة باللّغة الفرنسيّة، مرجع سابق، ص:133.
26المرجع نفسه، ص:133، 134.
27المرجع نفسه، ص:134.
28 عبد المالك مرتاض، القصّة الجزائريّة المعاصرة، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (دط)، 1990، ص:08.
29 عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، دار الكتاب العربي للطّباعة، والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (دط)، 1967، ص:210.
30 أحمد منور، أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة باللّغة الفرنسيّة، مرجع سابق، ص:160.
31 عام جديد بلون الكرز، مختارات من أشعار ونصوص مالك حدّاد، تر: شرف الدّين شكري، وزارة الثّقافة والفنون والتّراث، دولة قطر، كتاب الدّوحة 32، (دط)، يناير 2014، ص:07.
32المصدر نفسه، ص:08.
33المصدر نفسه، ص:22.
34المصدر نفسه، ص: 25.
35المصدر نفسه، ص: 38
36المصدر نفسه، ص:39، 40.
37المصدر نفسه، ص:44، 45.
38المصدر نفسه، ص:46.
39المصدر نفسه، ص:47.
40المصدر نفسه، ص:49.
41المصدر نفسه، ص:64.
42المصدر نفسه، ص:66.
43المصدر نفسه، ص:70.
44المصدر نفسه، ص:84.
45المصدر نفسه، ص:99.
46المصدر نفسه، ص:107.
47المصدر نفسه، ص:108.
48المصدر نفسه، ص:114.
49المصدر نفسه، ص:114.
50المصدر نفسه، ص:125.
51المصدر نفسه، ص:134، 135.
52المصدر نفسه، ص:140، 141.
53المصدر نفسه، ص:141.

54المصدر نفسه، ص:167.
55المصدر نفسه، ص:168.
56المصدر نفسه، ص:07.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

-عام جديد بلون الكرز، مختارات من أشعار ونصوص مالك حدّاد، تر: شرف الدّين شكري، وزارة الثّقافة والفنون والتّراث، دولة قطر، كتاب الدّوحة 32، (دط)، يناير 2014.
-ثلاثيّة مُحَمَّد ديب، التّول، الحريق، الدار الكبيرة، تر: سامي الدّروبي، دار الوحدة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، (دط)، 1985.

المراجع:

-إدريس هاني، حوار الحضارات بين أنشودة المثاقفة وصرخة الهامش، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/المغرب، بيروت/ لبنان، ط1، 2002.
-أحمد منور، أزمة الهويّة في الرّواية الجزائريّة باللّغة الفرنسيّة،دراسة أدبيّة، دار السّاحل للكتاب، الجزائر، (دط)، 2013.
-إسماعيل حاجم، الصّراع الحضاري في الرّواية الفرانكفونية المغاربيّة، دار الأمل، الجزائر، ط2، 2020.
-طه وادي، الرواية السياسية، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، ط1، 2003.
-عبد العزيز شرف، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.
-عبد المالك مرتاض، القصّة الجزائريّة المعاصرة، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الجزائر، (دط)، 1990.
-عبد الله الركيبي، القصّة الجزائريّة القصيرة، دار الكتاب العربي للطّباعة، والنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، (دط)، 1967.
-عبد الله الركيبي، دراسات في الشّعر العربي الجزائري الحديث، الدار القوميّة للطّباعة والنّشر، (دط)، 1961.
-مُحَمَّد ناصر، الشّعر الجزائري الحديث، اتّجاهاته وخصائصه الفنّية (1925-1975)، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2006.
-مصطفى فاسي، دراسات في الرّواية الجزائريّة، دار القصبة للنشر، حيدرة، الجزائر، (دط)، 2000.

المجلات:

-لخضر بلقاق، الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسيّة، وسؤال الهويّة، مجلة قضايا معرفيّة، جامعة زيان عاشور الجلفة، الجزائر، ع 03، جانفي 2019.